كل الأسماء مستعارة... كل الوقائع تدعي أنها الحقيقة

رشا عزب

كل الأسماء مستعارة...كل الوقائع تدعي أنها الحقيقة
قراءة في تحقيقات أطفال محمد محمود

إعداد: رشا عزب

الناشر: الذاكرة والمعرفة للدراسات

أكتوبر 2021

www.mksegypt.org

مدخل إلى الذاكرة

هل يمكن أن نسمع أصوات المعركة بعد عشر سنوات من حدوثها؟

هـا هـو الدبيـب الحـي، يمـشي تحـت الجلـد في اسـتكانة مزيفـة، يتعايـش مـع الحـاضر ويتملـق اللحظـة الفائتـة بفخـر أحيانًـا، ويلعنهـا بغضـب أحيانًـا أخـرى، أمامنـا لحظـات عاشـها عـشرات الأطفـال الذيـن اشـتركوا في معركـة محمـد محمـود الأولى التـي جـرت وقائعهـا في نوفمـبر مـن عـام الثـورة. نرصـد اللحظـة الرسـمية كـما سـجلتها الأوراق، نسـمع القليـل مـن أصواتهـم ونحـاول رسـم ملامحهـم مـن الوصـف المخـل، يتحركـون عـلى الـورق رغـم ثبـات الاتهامـات العبثيـة وقدرتهـا عـلى الفتـك بعقـل طفـل قـاصر يواجـه سـلطة شرسـة بـلا أهـل أو محـام في أغلـب التحقيقـات. يقـف ثمانيـة وثلاثـون طفـلًا، عـدد منهـم مصـاب، أمـام جهـات التحقيـق التـي نصبـت في خلفيـة حـدث كبـير يـدور في الشـوارع عـلى مسـافة شـارعين مـن محكمـة عابديـن التـي شـهدت وقائـع أغلـب التحقيقـات. كانـت آلـة القتـل تحصـد ولا تـكل، تنـزف العيـون ويذهـب نورهـا بـلا رجعـة. عـلى مسـافة شـارعين مـن محكمـة عابديـن جـرت وقائـع لا يمكـن أن تنكرهـا الأوراق الرسـمية وإن حاولـت.

منـذ اللحظـة الأولى التـي عـاودت فيهـا قـراءة أوراق هـذه القضيـة، أدركـت أن العـودة للـوراء مثـل السـير عكـس اتجـاه الطريـق، مكلفـة، تقـشر طبقـات مـن خـداع الذاكـرة؛ كيـف يمكـن قـراءة قصـة بعـد عـشر سـنوات مـن حدوثهـا دون التفكـير في مسـار حيـاة أبطالهـا؟ كانـوا صغـارًا وصـاروا شـبابًا ورجـالًا يخوضـون غـمار الحيـاة الآن، مختلفـة مصائرهـم، هـل تصالحـوا مـع هـذه اللحظـة أم تركوهـا في قـاع الذاكـرة لتدفـن في أحيائهـم الفقـيرة البعيـدة التـي جـاء أغلبهـم منهـا؟ كان أغلبهـم بعيـدًا عـن المركـز، بعيـدًا عـن مـصر التـي ترصدهـا عدسـات مصـوري العـالم في هـذه اللحظـة، يتـوق أغلبهـم لـ»رؤيـة الحـدث» كـما عـبَّروا بـبراءة في بعـض التحقيقـات، لكنهـم حـين أتـوا لم يكـن هنالـك مجـال للفرجـة الرخيصـة والممازحـة الطفوليـة، فقـد جـاءوا أرض الأثمـان الباهظـة حيـث تنهـار الحكومـة أمـام سـيطرة المجلـس العسـكري عـلى مجريـات الحكـم ليبـدأ عـصر الضربـات الموجعـة للمسـار الثـوري: الإخـوان في حالـة انتشـاء سـياسي، يسـتعدون لانتخابـات التمكـين، والمعارضـة الثوريـة منقسـمة مـا بـين المشـاركة في الانتخابـات البرلمانيـة الأولى ودعـم معركـة الثـوار عـلى الأرض. حـين جـاء أطفـال هـذه المعركـة أضحـى لـكل شيء ثمـن، ولـكل خطـوة في شـوارع هـذه المدينـة معنـى ومسـار معبَّـد بالخطـر.

هـذه أقـوال مجموعـة مـن الأطفـال، دخلـوا التجربـة وحدهـم وخرجـوا كذلـك. بقيـت تفاصيـل مـا جـرى لهـم بـين هـذه الأوراق لعـشر سـنوات، والآن تحـاول الخـروج.

اليوم الأول في التحقيقات

٢١ نوفمبر

هـذه الشـوارع لم تنـم منـذ يومـين، جفـون ثقيلـة تتمـشى في سـاعات الخطـر، تركـة مـن الـدم الحـي، لا تتبخـر رائحتـه مـن الهـواء، يـوم أمطـرت السـماء فيـه لم نـدر هـل جـاءت لتنظيـف الطرقـات أم لتكـوّن بـرك المـاء ذات اللـون الـوردي القاتـم الـذي يعظـم الرائحـة ويرسـمها فـوق الأرض. كنـا نمـر بجـوار خطـوط الـدم في حـذر، كأننـا نخـشى القيامـة، نخـشى المـوت السـائل فـوق حديثنـا عـن الحيـاة والتغيـير والتضحيـات.

في الليلـة الماضيـة، العـشرون مـن نوفمـبر، وبعـد اشـتباكاتٍ عنيفـة مـع القـوات الشرطيـة، ظهـرت قـوات الجيـش في نهايـة النهـار وكنسـت الميـدان مـن البـشر، كان الضـوء الشـحيح كافيًـا لأن ترصـد الكاميـرا جريمـة القتـل عـلى ناصيـة شـارع التحريـر بجـوار شركـة سـفير للسـياحة. وصـل عـدد القتـلى إلى أربعـة وعشريـن قتيـلًا بينـما يرفـض المجلـس العسـكري الاعـتراف بالرصـاص المـضروب في صـدور المواطنـين رغـم التسـجيلات المدعومـة بالصـوت والصـورة. هـزت الجريمـة أعشـاش المنشـغلين بالتحـول الديمقراطـي. لم يفهـم الساسـة مـا يجـري، مـن يتحكـم في المشـهد؟

زادت أعـداد المتضامنـين بعـد نـشر فيديوهـات المذبحـة وواصـل آلاف البـشر سـعيهم نحـو الميـدان مـن القاهـرة والمحافظـات لنجـدة القلـة الباقيـة. عـادت المواجهـات مـع القـوات الشرطيـة بعـد اختفـاء قـوات الجيـش فـور تنفيـذ المهمـة القاتلـة.

شـب يـوم الاثنـين الحـادي والعشريـن مـن نوفمـبر عـلى أكتـاف سـيرة القنـاص الـذي ظهـر فـوق أسـطح شـارع محمـد محمـود، وحـده الضابـط المـدرب يعـرف كـم قتـل، كـما يعـرف شـهود عديـدون كيـف قتـل طبيـب المستشـفى الميـداني وكل مـن حـاول إنقـاذه؛ حملـت الإسـعاف ثلاثـة جثامـين مكومـة فـوق بعضهـا في شـارع بسـتان بـن قريـش، كل منهـم حـاول إنقـاذ آخـر لا يعرفـه.

في منتصـف نهـار الاثنـين، وصلـت المواجهـات إلى حـدود شـارع منصـور ونوبـار وظهـر المواطنـون الشرفـاء عـلى حـدود منطقـة عابديـن لاصطيـاد المتظاهريـن. تبـدأ التحقيقـات التـي نحـاول إعـادة قراءتهـا مـن الحـادي والعشريـن مـن نوفمـبر وتسـتمر حتـى اليـوم الرابـع والعشريـن لـذات الشـهر؛ ليسـت مفارقـة أنـه نفـس اليـوم الـذي توسـعت فيـه آلـة القتـل والترهيـب لمواجهـة الأعـداد الغاضبـة التـي انضمـت لمعركـة محمـد محمـود؛ رأينـا جميعًـا طلابًـا بالملابـس المدرسـية والحقائـب المحشـوة بالكتـب والحجـارة، لم يسـتدعهم أحـد، لم يحملـوا نظريـات سياسـية حـول اللحظـة، حـضروا وقالـوا كلمتهـم في الشـوارع، وسـجلت بعـض مـن هـذه الأوراق رحلتهـم.

طه

خرج «طه» صباح يوم الاثنين من شارع المفتي بمحافظة بني سويف، يحمل سبعة عشر عامًا، لكنه يبدو أصغر من ذلك، قِصَر قامته ونحافته يضعونه في مرحلة عمرية أقل، ربما يغضب ذلك الفتية في سنوات المراهقة والمنافسة على قدرتهم على النمو وكأنها جهد شخصي. يستعد طه لنزول القاهرة، يرتدي ملابسًا تعكس بشاشة وإقبالًا: جاكيتًا أبيضًا وحذاءً رياضيًا بنفس اللون وبنطلون جينز أزرق وقميصًا رماديًا.

خرج طه وحيدًا، ولا نعرف أيضًا كيف فعلها بينما العناصر الشرطية تراقب مداخل ومخارج الميدان، وتلقي القبض على المواطنين المحتمل قدومهم للمشاركة من مواقف المنيب ومحطات القطارات. لكنه وصل إلى الميدان ظهر يوم الاثنين في الثانية عشر والنصف بحسب وصفه. دخل طه مدفوعًا بحماسةٍ ماج بها صدره خلال اليومين الماضيين من رؤية الأحداث عبر الشاشات، اندفع بالهتاف ثم دخل وسط الجموع، تلقى قنابل الغاز التي كان يشاهدها في شاشات التلفزيون.

يبدأ العصف.. صوت سرينة المدرعة والجميع يجري هنا وهناك. حاول طه الاختباء في أحد الحارات الضيقة، فوجد نفسه في مواجهة عسكري جيش، حاول استجدائه، لكن الجندي لم يسمع، لوى ذراعه ثم سلمه إلى قوات الأمن المركزي، لينهال عليه بالضرب فتية يكبرونه قليلًا، ربما قَدِموا من نفس المحافظة العالقة في فوهة الصعيد. نقل العساكر طه إلى كشكٍ خشبيّ ملاصق لمبنى وزارة الداخلية، لتبدأ حفلة ضرب أخرى بين عجينة بشرية ساخنة يتقطر منها الدم. خرج طه من الكشك الخشبي مصابًا بكدماتٍ في الوجه والرقبة والظهر، لكن الأمر لم ينتهِ عند هذا الحد؛ إذ وجد طه نفسه مع عشرات المقبوض عليهم ومن بينهم ثمانية فتيان من مثل سنه تقريبًا، يُدفعون في عربة ترحيلات، ثم يعرضون على النيابة.

أخيرًا وجد طه من يسأله ويسمعه، فمنذ القبض عليه حاول أن يقول كلمتين، لكن العصيان الخشبية الحمقاء لا تسمع، وقف أمام وكيل النيابة في تمام الخامسة مساءً حيث فُتِح المحضر المسجل باسمه في أوراق هذه القضية. خمس ساعات فقط منذ وصوله إلى القاهرة، خمس ساعات عنيدة شاهدة على ما جرى. انهال عليه وكيل النيابة بالاتهامات الضخمة، كانت الاتهامات مثل العصا الخشبية التي روعت طه منذ وصوله إلى القاهرة، لكن الفتى قال جزءًا مما أراد، جزءًا مما بقي شاهدًا على رحلته القصيرة الكاشفة.

س: متى وصلت تحديدًا إلى ميدان التحرير؟

ج: الساعة ١٢ ونصف ظهرًا.

س: وما الذي أتى بك إلى ميدان التحرير؟

ج: جيت علشان أشارك مع المتظاهرين.

س: وما الذي دفعك إلى ذلك؟

ج: المشاهد اللي أنا شاهدتها بقتل وإصابة المتظاهرين بميدان التحرير من قوات الشرطة والجيش.

س: وهل ثمة جهات أو أشخاص قاموا بدعوتك للمشاركة في تلك المظاهرات؟

ج: لأ، أنا باعتباري مواطن مصري حبيت أشارك مع المتظاهرين.

س: وهل تنتمي لحزب أو منظمة أو حركة سياسية؟

ج: لأ.

س: وما هي الشعارات التي كنتم ترددوها في الميدان؟

ج: يسقط حكم العسكر، وبنقول «مدنية مدنية... دولة مدنية»، وبنطالب بالإفراج عن المحتجزين.

عبده

صاغ «عبده» قصته كما يليق بطالب قاده حظه العثر إلى ميدان التحرير ثم فوجئ بما يجري حوله، غالبية الطلاب حضروا إلى أرض المعارك خلسة من آبائهم، بعضهم استشهد بينما يظن أهله أنه ذهب لدرس خصوصيّ!

يعيش عبده في حي السيدة نفيسة، طالبًا في مدرسة الخديوي إسماعيل الكائنة بشارع نوبار الذي يصل امتداده ناحية وسط البلد ويتقاطع في نقطة ما عند مدخل محمد محمود. كان طلاب مدرسة الخديوي إسماعيل ومدرسة عابدين ومدرسة مصطفى كامل فصيلًا بارزًا بين صفوف المتظاهرين، خاصة في ساعات الصباح المستسلمة، فما كانت لتهدأ الاشتباكات في هذه الأوقات، حتى يظهر طلاب المدارس يسكبون الزيت النظيف في نار الشوارع. ظلت مدرسة الخديوي إسماعيل خلية فائرة للنشاط الطلابي الثوري، خرجت منها مظاهرات طلابية نحو الميدان، وفقدت المدرسة اثنين من طلابها في أشرس معارك العام الثاني عشر بعد الألفين، عام الضباب حيث استشهد أحمد يوسف في مذبحة بورسعيد أثناء تشجيعه للنادي الأهلي، ولحقه جابر صلاح «جيكا»، طالب الثانوية الذي قتلته الداخلية، ابن منطقة عابدين التي عُرِفت في الفترات الأولى للثورة بأنها موطن للمواطنين الشرفاء، حتى مات جيكا، وتغيرت الأحوال ودخلت المسيرات حي عابدين تحت حماية صورة الفتى ذا القميص الأحمر الذي يحمل عنوان «سوبر مان».

ينتمي عبده لنفس المدرسة الثانوية، شابٌ طويل القامة، قمحيّ البشرة، أسود الشعر، كان يرتدي بنطلون جينز وتيشيرتًا أسودًا وحذاءً رياضيًا بنفس اللون حين قبض عليه، سجلت الأوراق الإصابات البادية على جسده: جرح بأعلى فروة الرأس وسحجات باليدين والذراعين اليمنى واليسرى والظهر مما يعني أنه تعرض لاعتداءات شديدة.

وصل عبده مع صحبته من المدرسة، قال إنه اضطر للمرور بميدان التحرير لاستلام أوراق الدرس من أحد أصدقائه قبل الامتحان الذي يحين موعده في اليوم التالي، ثم ضاعت الرفقة وسط الاشتباكات في الشوارع. أصيب عبده بطوبة في الرأس مصدرها كما قال» «خناقة متظاهرين معارضين ومؤيدين للاعتصام»... شاهد فريقين من المدنيين يرمون بعضهم بعضًا بالحجارة في شارع محمد محمود بينما تحاول الشرطة الفصل بينهما، فاندفع عبده إلى عمق وسط البلد عند باب اللوق مصابًا والدم يسيل من رأسه، يحاول طلب المساعدة لتلقى إلى جواره قنبلة غاز فيفقد التوازن ثم يجتمع حوله مجموعة من المدنيين ليبرحوه ضربًا ويسلموه إلى قوات الأمن المركزي التي تستكمل حفلة الاعتداء ثم تسلمه إلى ضابط جيش يتولى مهمة ضربه منفردًا، لينقل بعدها إلى نيابة عابدين للتحقيق معه بتهم كان أبسطها التعدي على قوات الشرطة.

استطاع عبده تسجيل الاعتداء عليه في محضر منفصل وكانت تلك بعضًا من أقواله:

س: ما تفصيلات حدوث إصابتك؟

ج: هو زي ما أنا قلت: إصابتي حدثت لما شخص من الحكومة بلبس مدني قبض عليَّ، وبعض المجندين ضربوني وأحدثوا إصاباتي وأخدوني على كشك جنب وزارة الداخلية وعرضوني على هنا.

س: من محدث إصابتك بالضبط؟

ج: هم مجندين من الأمن المركزي.

س: هل تعرفت على أي منهم؟ وكم عددهم؟

ج: أنا ما أعرفهمش ولكن اللي ضربني ناس كتير.

س: وما سبب قيامهم بذلك تحديدًا؟

ج: معرفش.

س: وما قصدهم من ذلك؟

ج: قصدهم يضربوني ويحدثوا إصابتي ويقبضوا عليَّ.

س: ما الأدوات التي استخدمها سالف الذكر في ذلك؟

ج: هي كان معاهم عصيان بتاعة الأمن المركزي.

س: وما هي الحالة التي كنت عليها بالنسبة إليهم بعدًا ومستوىً واتجاهًا؟

ج: هو ما كانش في مسافة بينَّا، لكن كانوا قابضين عليَّ، كانوا على نفس المستوى، وكانوا على طول من وشي في المواجهة وفي ظهري.

س: كم ضربة كالها لك سالف الذكر تحديدًا؟

ج: هي ضربات كتير ومش عارف أحددها.

س: وكيف استشعرت تلك الضربات؟

ج: استشعرت من دراعي اليمنى واليسرى وظهري.

رمضان

في عمق مركز الخانكة التابع لمحافظة القليوبية، يقع كفر حمزة، واحدٌ من مئات الكفور في إقليم الدلتا. الكفر محاصر بالطرق الداخلية المطلة على واقع مشابه، الشوارع الطينية، التحرك البطيء نحو التحديث، المباني ذات الطابقين تشق الرقعة الخضراء، ولا تزال الفلاحة وزراعة الذرة والأرز المهن الأكثر حضورًا. لكن كفر حمزة حظيَ ببوابةٍ خاصة، صارت طريقًا للخروج للنهار، إذ يقع على الطريق الزراعي بين القاهرة والإسماعيلية. خرجت الأهالي إلى هذا الطريق لإغلاقه في وجه الدولة ومواطنيها العابرين؛ كانت تلك أكثر الطرق الريفية احتجاجًا على الأوضاع، عادةً لمواجهة تنكر المدينة للضواحي، لكن رمضان ذو الستة عشر عامًا، قد ذهب إلى ما هو أبعد من طريق الأسفلت العمومي. قرر رمضان ذلك اليوم الانضمام إلى صحبته في مدرسة مسطرد الثانوية الزراعية، أقرب المدارس الزراعية إلى كفر حمزة، والذهاب إلى التحرير.

القادمون من أقاليم الدلتا، يركبون سيارات الأجرة التي توصلهم إلى موقف عبود، ومن هناك يمكنهم النفاذ إلى المدينة عبر بوابة شارع رمسيس، ومن هذا الشارع يتسلل الغرباء إلى مسام وسط البلد عبر شوارع شامبليون وعبد الخالق ثروت ومعروف. وصل رمضان في الثانية عشر ظهرًا، إلى شارع شامبيلون المؤدي للميدان الذي لم يصل إليه طبقًا لأقواله، حيث قبض عليه وتم نقله مع آخرين إلى ذات الكشك الخشبي الموجود بجوار وزارة الداخلية ثم إلى مقر النيابة في محكمة عابدين.

تشير أوراق المحضر إلى أن التحقيق قد فُتِح في الساعة الحادية عشر مساءَ الاثنين، وهي نهايةٌ ليوم طويل للفتية والمحققين الذين لم يقدموا في وصف المتهم الصغير إلا بضع من كلمات مبعثرة، من بينها: فتى متوسط البنية، قمحيّ اللون، أسود الشعر، حليق اللحية والشارب، يرتدي بنطلون جينز أزرق وقميصًا أبيضًا وفوقه جاكيتًا أسودًا من الصوف، ولا تظهر عليه علامات أو إصابات تسترعي اهتمام المحقق أو تفيد إجراءات التحقيق الذي لم يكن مطولًا كما حدث في باقي تحقيقات الفتية. إلا أن ثمة تفصيلة صغيرة في متن التحقيق، تكشف أن الإصابات الظاهرة لم تكن تُسجَّل في أغلب الأحوال إلا في حضور محام. وقد تعرض رمضان، في الغالب وفقًا لأقواله في جزء من التحقيق، للاعتداء.

س: ما الذي حدث إذًا وما هي ظروف ضبطك وإحضارك؟

ج: اللي حصل إن أصحابي قالولي تعال نروح التحرير علشان نتفرج على المظاهرات، ولما وصلنا ميدان التحرير لقيت ناس بتنضرب وبتقع على الأرض فأنا كنت بساعدهم، ومرة واحدة لقيت عساكر أمن مركزي جم علينا وجرجرونا لحد الكشك بتاع وزارة الداخلية، ورشوا حاجة على عنينا بعد عشر دقايق خدونا في ميكروباص وودونا على قسم عابدين، هو ده كل اللي حصل.

س: متى وأين حدث ذلك؟

ج: الكلام ده حصل النهارده ٢٠١١/١١/٢١ حوالي الساعة الثانية ظهرًا في شارع شمبليون المؤدي لميدان التحرير.

س: ما سبب تواجدك بالزمان والمكان سالف الذكر؟

ج: أنا كنت بتفرج على المظاهرات اللي كانت موجودة في ميدان التحرير.

س: من كان برفقتك آنذاك؟

ج: أنا كان معايا أصحابي بس اتفرقت عنهم.

س: ما الذي حدث أثناء إسعافك ومساعدتك للمصابين المتواجدين بميدان التحرير؟

ج: هي عساكر الأمن المركزي هجموا علينا وسحلوني لغاية الكشك بتاع وزارة الداخلية.

س: ما قولك فيما قرره سالف الذكر في تحقيقات النيابة العامة من أنك قمت بالاشتراك مع المتظاهرين بإلقاء طوب وزجاجات فارغة ومولوتوف وتعطيل حركة المرور بميدان التحرير وشارع محمد محمود والشيخ ريحان وطلعت حرب وجميع الطرق المؤدية لوزارة الداخلية وكذا ميدان باب اللوق؟

ج: الكلام ده ما حصلش، أنا كنت بتفرج على المظاهرات وكنت بساعد المصابين.

اليوم الثاني في التحقيقات

٢٢ نوفمبر

كان طريق الإسعاف في هذا اليوم مثل وريدٍ مكشوف، شقًا عميقًا في كتلة بشرية متلاحمة، الطريق مفتوح من مسجد عمر مكرم حيث المستشفى الميداني وحتى مدخل محمد محمود. تتحرك فرق متطوعي الموتوسيكلات، تلتقط المصابين والشهداء وتعود بينما يقف على الجانبين فى برودة نوفمبر، شهود المذبحة، يحمون الهواء في الممر الساخن، ينزعون عن أنفسهم صفات المتفرجين، نحن الشهود، رأينا النظرة الأخيرة لمن غربت سماواته.

كانت التصريحات الرسمية تشير إلى ضرورة التهدئة قبل الدعوة لمليونية «الإنقاذ» التي كان موعدها هذا اليوم، لكن غضب المجلس العسكري كان واضحًا من نوع الهتافات التي يضج بها الميدان وجماهيره كما سجلت شهادات صحفيي النظام. حاولت القوات الشرطية صباح الثلاثاء دفع المتظاهرين بوابل من الغاز والسيطرة على أسوار الجامعة الأمريكية، لكن الأعداد المتوافدة على الميدان صدّت الهجوم مرات عدة ونقلت الاشتباكات إلى حدود شارع منصور وميدان الفلكي. شهد اليوم على أكبر حصيلة إصابات: ستمائة وتسعون مصابًا وقتيلان بالرصاص الحي.

في المساء، تم الإعلان عن أول خطاب للمشير طنطاوي للتعليق على الأحداث بعد قبول استقالة الحكومة. عبّر المتظاهرون عن رفضهم لمحتوى الخطاب، رفعوا الأحذية كما فعلوا مع خطاب مبارك الثاني. تعرض الميدان لهجوم نوعي عبر غازات غير مرئية أصابت البعض بالتشنجات... أخلت الغازات قلب الميدان، لم يكن الخطاب سوى إعلانًا عن الفقرة الثانية من العصف والترويع؛ فشل الساسة وقادة المجلس العسكر في وقف اعتداءات الشرطة، كما فشلت المجموعات السياسية في كبح تيارات الأدرينالين المستعدة لمواجهة الموت.

كانت القشرة الخارجية للحدث تشير لصراعٍ سياسيّ بين المجلس العسكري والحكومة المدنية بقيادة عصام شرف، بينما تقف مواقف الإخوان على ناصية الصراع في محاولة التقاط الغنائم الباقية من المعركة. كان للصراع على الأرض جذور أخرى؛ كانت المعركة بين استمرار الطغيان ومحاولة إيقافه. البعض يحاول صياغة أسطورته الخاصة في اللحظات العصية على الفهم. لم يختر الناس بدء هذه المعركة؛ البداية معروفة: قرارٌ منفرد من المجلس العسكري دون الحكومة بفض اعتصام أهالي الشهداء ظهر التاسع عشر من نوفمبر. لكنهم اختاروا أن يكونوا بداخلها، أن يحملوا جواز عبورها.
ربما حل الندم بعد سلسلة من هزائم لم تكن في الحسبان، لكن حينها لم يكن هناك سوى غواية الصمود والتعري الكامل أمام الخطر وذوبان الوعي الفردي في الفيض الأبيض. مع اشتداد المعارك في الليل، ينقطع النور عن منطقة الاشتباكات، يتحرك الجميع في ظلام محسوس على أضواء الحرائق أو كشافات الليزر الأخضر التي راجت حينها باعتبارها من أدوات المعركة. في هذا الليل الطويل، كان صوت الجموع راسخًا في شوارع مهزومة، ومن ينسى؟!

إبراهيم

تنتهي الوردية في المصنع ثم تبدأ الحياة كما اختارها إبراهيم، عامل في السادسة عشر، انصرف عن التعليم مضطرًا ويتعلم صنعة. بصمة عقلة إصبع صغيرة في ذيل أوراق التحقيقات على أقواله تعرفنا أن إبراهيم لا يجيد فك الخط.

تمتلئ مصانع شبرا الخيمة بسنابل خضراء تشبهنه، عمالة غير مرخصة، تجني قوتها باليومية بدون غطاء تأميني لأن القانون الرسمي يمنع عمالة الأطفال، لكن القانون لن يطعمهم ولن يفيد بطونهم العفية التي لن تجد ما تفرمه مع طلعة كل شمس.

مع نهاية يوم الثلاثاء، ينزح إبراهيم مع صحبته إلى ما أطلق عليه «أرض التحرير» لمشاهدة ما يجري دون المشاركة فيما يحدث كما شدد في أقواله، حيث توقع أن الاشتباكات تهدأ في المساء. ينتصف الليل، يعود أصدقاؤه ويقرر إبراهيم البقاء قليلًا، وفي لحظة الخروج من الميدان، ينادي عليه شخص ثم يسحبه إلى عساكر الأمن المركزي ويقبضون عليه فجر الثلاثاء. حاول إقناعهم أنه لا ينتمي للناس «بتوع» التحرير، لكنه وجد نفسه يسقط على الأرض لتبدأ العصيان الخشبية الطائشة في دورها. ضربات متتالية على رأسه وقدمه وظهره. يُجرُّ مكوّمًا إلى سيارة الترحيلات التي أقلته إلى مكان غير معلوم بالنسبة له، ثم وصل إلى غرفة التحقيق. أين يذهب إبراهيم بعد دورية المصنع؟ يذهب للسجن!

هل يختلف المصير في أرض التحرير عن أرض شبرا الخيمة؟

حين قررت صحبة إبراهيم النزول، لم يكن قد وصل بعد لسن إصدار البطاقة الشخصية، لا يحمل في محفظته سوى شهادة ميلاده. وعلى ما يبدو، لم تكن «محمد محمود» ساحة مواجهتهم الأولى، فقد عاشوا على أرضهم معركة امتدت لساعات في شارع الحبيبي بجوار قسم شبرا ثان، أمام مسجد الصوالحة الذي خرجت منه المظاهرات و الشارع الجديد حيث تبدأ غالبية المسيرات في محاولة للوصول تحت كوبري المؤسسة؛ تلك المنطقة التي تمركزت فيها قوات الأمن لمحاولة منع مسيرة شبرا الخيمة من الوصول إلى التحرير. قتل خمسة وعشرون متظاهرًا وأصيب العشرات في أحداث جمعة الغضب. شاهد إبراهيم وجيله كيف يترجل الموت بين شوارعهم الضيقة، سكك مفتوحة للهلاك لكنها شكلت وسم آخر لحياة حاولوا تذوقها للمرة الأولى كما فعلت الملايين.

س: ما تفصيل حدوث إصابتك؟

ج: زي ما قلت لحضرتك تعدت قوات الأمن المركزي بالضرب عليَّ باستخدام العصي الخشب، وخدت خبطة في راسي بين عيني وضربة تانية في رجلي اليمين وخدت عدد من الضربات في ضهري.

س: ما هي الإصابات التي بك ومن الذي أحدثها وما هي الأداة المستخدمة في إحداثها؟

ج: أنا عندي إصابة بمقدمة راسي بين عيني، وعندي إصابة برجلي اليمين بضربة عصايا وخدت عدد من الضربات في ضهري بالعصيان.

س: وكم ضربة تلقيتها تحديدًا؟

ج: ضربة في راسي وواحدة في رجلي وضربات متعددة بضهري ما أقدرش أحدد.

س: ومن تحديدًا قام بإحداث إصابتك وما الأداة المستخدمة في إحداثها؟

ج: اللي ضربني عساكر الأمن المركزي وضربوني بالعصا الخشب اللي معاهم.

س: وما هي طبيعة الأرض التي كنت تقف عليها آنذاك؟

ج: أرض الشارع الأسفلتية.

س: وما هي حالة الضوء والرؤية آنذاك؟

ج: الشارع كان ضلمة والرؤية مش واضحة.

حسن

لا يمكن التكهن بالمكان الذي يعيش فيه حسن الآن، ربما محته يد التطوير الثقيلة ضمن ما محت. الأوراق تشير إلى أنه من سكان بولاق أبو العلا، نسبة إلى مسجد السلطان أبو العلا مؤلف القلوب وحبيب المحرومين. يقبع السلطان شاهدًا وحيدًا، فقد تعرض للتفريغ العمراني والآن يتجه للنظر نحو عمارات حديثة ذات نوافذ زجاجية زرقاء. رحل المريدون وجاء المستثمرون.

يقول حسن إنه اضطر إلى الذهاب لوسط البلد بسبب خوفه على ابن خالته الذي ذهب لحضور المظاهرات المندلعة حول وزارة الداخلية. قرر حسن أن ينزل للبحث عنه وإرجاعه إلى البيت. حين وصل إلى التحرير شاهد المتظاهرين يرمون المولتوف والحجارة على قوات الأمن بينما القوات ترد بالغاز المسيل للدموع. وهنا تطور دور حسن من البحث عن ابن خالته للعب دورًا فيما يجري، قال إنه حاول أن يقف في الصفوف الأولي للتفريق بين المتظاهرين وقوات الأمن ولحماية قوات الأمن أيضًا، ثم شعر بالخطر على نفسه فقرر أن يبتعد قليلًا، ثم نفذت قوات الأمن هجمة على المتظاهرين وأخذوه معهم بالخطأ اعتقادًا منهم أنه يقوم بعمل زجاجات المولوتوف مع المتظاهرين.
حسن شابٌ طويل البنية، قمحيّ اللون، يرتدي بنطلون جينز أزرق وجاكيتًا أسودًا وكوتشيًا أسودًا كذلك، سنه المثبت في الأوراق سبعة عشر عامًا، ولذلك كان من بين الاتهامات عدم حيازة بطاقة شخصية، قال إنه فقدها في رحلته القصيرة إلى التحرير.

أُلقي القبض على حسن الساعة الثالثة فجر يوم الثلاثاء، عرض على النيابة في العاشرة من مساء نفس اليوم مع عدد من الأطفال القصر. هذا اليوم كان الأقل في أعداد الأطفال المقبوض عليهم. ربما خفف آلاف المتضامنين في مليونية الثلاثاء من وطأة السعار الأمني في حملات القبض المستمرة، كذلك انضمام شباب الأولتراس الأهلاوي والزملكاوي وممارستهم ألعابهم في إنهاك القوات الشرطية. فقد فتحوا مسامًا في عقلية «الضرب في المليان» حتى يدرك «الباشا» أن هناك طرقًا لمواجهة المتظاهرين دون قتلهم ودون أن يتحول إلى جدع لأنه استطاع فقأ عيون المتظاهرين باحترافية!

أُلقي القبض على حسن بينما كان مغشيًا عليه بعد تلقيه ضربتين موجعتين على رأسه، استفاق وهو داخل سيارة الترحيلات، استفاق على آلام مبرحة من استمرار الاعتداءات عليه حتى بعدما سقط بين أيديهم. حضر حسن تحقيق النيابة وآثار الاعتداءات ظاهرة من الرأس حتى القدمين ولم يهتم أحدهم بعرضه على الطب الشرعي لأنه عرض على أحد المستشفيات واستمر حبسه رغم حالته.

س: متى وأين حدث ذلك؟

ج: النهارده ٢٠١١/١١/٢٢ الساعة ٣ الفجر أمام وزارة الداخلية.

س: ومن كان برفقتك؟

ج: كنت لوحدي.

س: وما مناسبة تواجدك؟

ج: أنا كنت رايح أشوف ابن خالتي.

س: ومن الذي قام بالتعدي عليك؟

ج: عساكر الأمن المركزي بس معرفش مين فيهم.

س: وكيف وقفت على صفة سالف الذكر؟

ج: كانوا لابسين أسود، لبس الأمن المركزي وواقفين بجوار وزارة الداخلية.

س: وما سبب قيامهم بالتعدي عليك؟

ج: همَّ كانوا عايزين يقبضوا على حد فقبضوا علينا.

س: وما هي واجهتك من القائم بالتعدي عليك؟

ج: كان حواليَّ من كل ناحية وما كنتش عارف الضرب جاي منين.

س: وهل ثمة أدوات استخدمت في التعدي عليك؟

ج: أيوة، عصا الأمن المركزي.

س: كم ضربة وجهت لك؟

ج: ما حستش غير بضربتين وبعدها أغمى عليَّ وبصيت لقيت وجع في جسمي.

س: أين استقرت تلك الضربات؟

ج: الضربتين كانوا في دماغي بس لما فقت لقيت ضربات في ضهري وإيدي الشمال.

س: هل حاولت رد التعدي الواقع عليك؟

ج: لأ.

س: وما الذي حال دون ذلك؟

ج: هم أكتر مني وما أقدرش عليهم.

اليوم الثالث في التحقيقات

٢٣ نوفمبر

كان اليـوم السـابق طويـلًا وممتـدًا، أرهـق المتظاهريـن، أصيـب المئـات وعـاد آلاف إلى منازلهـم لمتابعـة مجريـات الحيـاة خـارج الميـدان، بينـما ظلـت سـاحة المعركـة مفتوحـة، حلـت سـاعة الخفـوت.

في هـذا اليـوم، انفـردت القـوات الشرطيـة بمـن تبقـى في المواجهـة. توسـعت الشراسـة وألقـت بظلهـا الكئيـب واسـتهدفت الأطبـاء في مقـر عملهـم. ألقـت الشرطـة حممًا مـن قنابـل الغـاز عـلى المستشـفى الميـداني، اختنـق المصابـون والمسـعفون ومـن بينهـم الطبيبـة رانيـا فـؤاد. حـاول المتظاهـرون إخراجهـا مـن سـحابة الغـاز، لكـن هجـوم قـوات الشرطـة المتواصـل حـال دون ذلـك حتـى لفظـت أنفاسـها مـع مـن حاولـت إسـعافهم.

كان هـذا اليـوم أشـبه بحملـة انتقاميـة موسـعة ردًا عـلى مواجهـات اليـوم المنـصرم وردًا عـلى الشـعارات الواضحـة التـي رفعهـا الميـدان ضـد المجلـس العسـكري والإخـوان. قتـل أربعـة شـهداء جـدد ليصـل العـدد إلى سـتة وثلاثـين شـهيدًا. تدفـق عـشرات المصابـين نحـو المستشـفيات المحيطـة بالميـدان، ومـع ارتفـاع أصـوات الرصـاص، صمتـت كل الأجهـزة الرسـمية، وخـرج المجلـس العسـكري في رسـالة إلكترونيـة ينفـي أن تكـون قـوات الجيـش قـد شـاركت في عمليـات القتـل. لكنهـم انتظـروا وشـاهدوا حتـى تـأكل الضبـاع النسـور الصغـيرة؛ في هـذا اليـوم لمـح واحـد مـن المصابـين ضحكـة الضابـط الـذى فقـأ عينـه منـذ ثـوان، شـاهده يمـرح بانتصـاره. سـحبه رفاقـه بعينـه التـي تقطـر الـدم إلى المستشـفى ليواجـه حياتـه المقبلـة بعـين زجاجيـة..
خرجـت الاسـتغاثات لمحاولـة وقـف الأحـداث الرهيبـة، حـضر لأرض محمـد محمـود وفـد مـن شـيوخ الأزهـر لإقامـة هدنـة عاجلـة، ثـم كـسرت الشرطـة الهدنـة وأمطـرت الشـارع بمـن فيـه بالغـاز، رغـم انسـحاب الغالبيـة العظمـى مـن المتظاهريـن إلى الميـدان. نظـم طـلاب المـدارس مسـيرات تضامـن انتهـت بانضمامهـم الى المعركـة القائمـة وإصابتهـم واعتقـال بعضهـم.

حـار شـباب الحـركات السياسـية والأحـزاب في التعامـل مـع الموقـف المتصاعـد، لم يكـن هنـاك سـبيل سـوى الدعـوة إلى مليونيـة جديـدة في الجمعـة القادمـة، للتأكيـد عـلى المطالـب الأساسـية في انتقـال الحكـم لهيئـات ومجموعـات مدنيـة ووقـف المحاكـمات العسـكرية للمدنيـين بالإضافـة إلى مطالـب الثـورة الأساسـية في العيـش والحريـة والعدالـة الاجتماعيـة، والتمسـك بـضرورة حسـاب القتلـة الذيـن يتمـددون وحدهـم في خلايـا الحكـم ويخرجـون إلى الشـوارع يمارسـون لعبـة المـوت كوسـيلة وحيـدة للدفـاع عـن الدولـة.

مجدي

كان مجـدي شـاهدًا عـلى لحظـة دقيقـة وعنيفـة، لحظـة مـن اللحظـات المتكـررة لاقتحـام المستشـفى الميـداني بجامـع عبـاد الرحمـن. هـذه الزاويـة المختبئـة داخـل أحـد الممـرات في تعريجـة معماريـة تصـل محمـد محمـود بالميـدان مبـاشرة، والتـي أقامهـا الصنايعيـة وحرفيـو محـلات وسـط البلـد كمصـلى بجـوار أعمالهـم، تحولـت منـذ جمعـة الغضـب إلى مستشـفى ميـداني أثنـاء الاشـتباكات، وظلـت تلعـب هـذا الـدور لفـترة. حـاول المتظاهـرون إقامـة بعـض المستشـفيات الميدانيـة في دور العبـادة المحيطـة بالميـدان مثـل جامـع عمـر مكـرم وكنيسـة قـصر الدوبـارة، في محاولـة يائسـة لحمايـة المصابـين. ربمـا ذهـب الفتـى إلى هـذا المـكان ظنًـا منـه أنـه مـكان آمـن، ربمـا كان يريـد أن يلعـب دورًا يختلـف عـن الاشـتباك مـع القـوات الشرطيـة، التـي لم ترحمـه أيضًـا رغـم وجـوده في مسـجد يتخـذ صفـة المستشـفى في حـال الاشـتباكات.

يتضـح مـن قصـة مجـدي، أن القـوات الشرطيـة التـي تـم تشريسـها عـلى مـدار أيـام كانـت مسـتعدة أحيانًـا لاقتحـام أعشـاش النمـل إذا طلـب منهـا ذلـك، ففـي أيـام الاشـتباكات الأخـيرة، كانـت الاعتـداءات التـي يمارسـونها ضـد المتظاهريـن هيسـتيرية، فالقـوات محرومـة مـن النـوم الجيـد لأيـام وجائعـة وممنوعـة مـن الإجـازات.

حـضر مجـدي للميـدان بهـدف إسـعاف المصابـين والتـزم الوقـوف في جامـع عبـاد الرحمـن حتـى اقتحمـت القـوات المسـجد وهـاج المـكان. حـاول البعـض الهـروب، كانـت مـن بينهـم سـيدة كبـيرة في السـن سـقطت عـلى الأرض. حـاول مجـدي إنقاذهـا فألقـت القـوات القبـض عليـه مـع مجموعـة أخـرى مـن داخـل المستشـفى الميـداني، وهجـم عليـه عسـاكر الأمـن المركـزي وبـدأت حفلـة الاعتـداءات بالعـصي السـوداء.

لم يكـن الوصـف الـذي حملتـه الأوراق حـول جسـد الصبـي يحتمـل كل مـا ذكـره مـن اعتـداءات، كان نحيـلًا متوسـط القامـة، سرق منـه الجاكيـت الـذي كان يرتديـه، وقـضى التحقيـق مرتديًـا تيشـيرتًا نصـف كـم في بـرد نوفمـبر، كان التيشـيرت مكتـوب عليـه كلمـة «Master»

س: من الذي أحدث بك إصابات من مسجد التحرير، وبأي شيء؟

ج: قوات الأمن المركزي وضربوني بعصايا سوداء.

س: ما هو وصف الأداة المستخدمة في الاعتداء عليك؟

ج: هي عصايا سوداء وطولها حوالي متر.

س: وما هي عدد الضربات التي كالت بك من الأمن المركزي؟

ج: حوالي ١٣ ضربة.

س: وأين استقرت تلك الضربات؟

ج: هم ضربوني في جسمي كله، بس اللي وجعني اللي جت في كوعي الشمال.

س: ما هي جهتك حال قيام قوات الأمن المركزي بالاعتداء عليك؟

ج: أنا كان وشي ليهم.

س: ما هي المسافة التي كانت بينك وبينهم آنذاك؟

ج: هو بينا ما فيش مسافة علشان كان في واحد منهم مسكني تحت باطه وضربني بالعصايا.

س: وذلك الشخص معروف لديك؟ وهل يوجد بينك وبينه ثمة خلافات؟

ج: لأ، هو عسكري لابس اللبس بتاعهم الميري وأنا ما أعرفوش وما فيش خلافات.

س: ما هو قصد ذلك الشخص من جراء ذلك التعدي؟

ج: هو ضربني بعصايا سوداء وكانت متر.

س: وكيف دفعت عن ذلك التعدي؟

ج: همَّ كانوا بيضربوا الناس كلها عشان يفضوا الميدان.

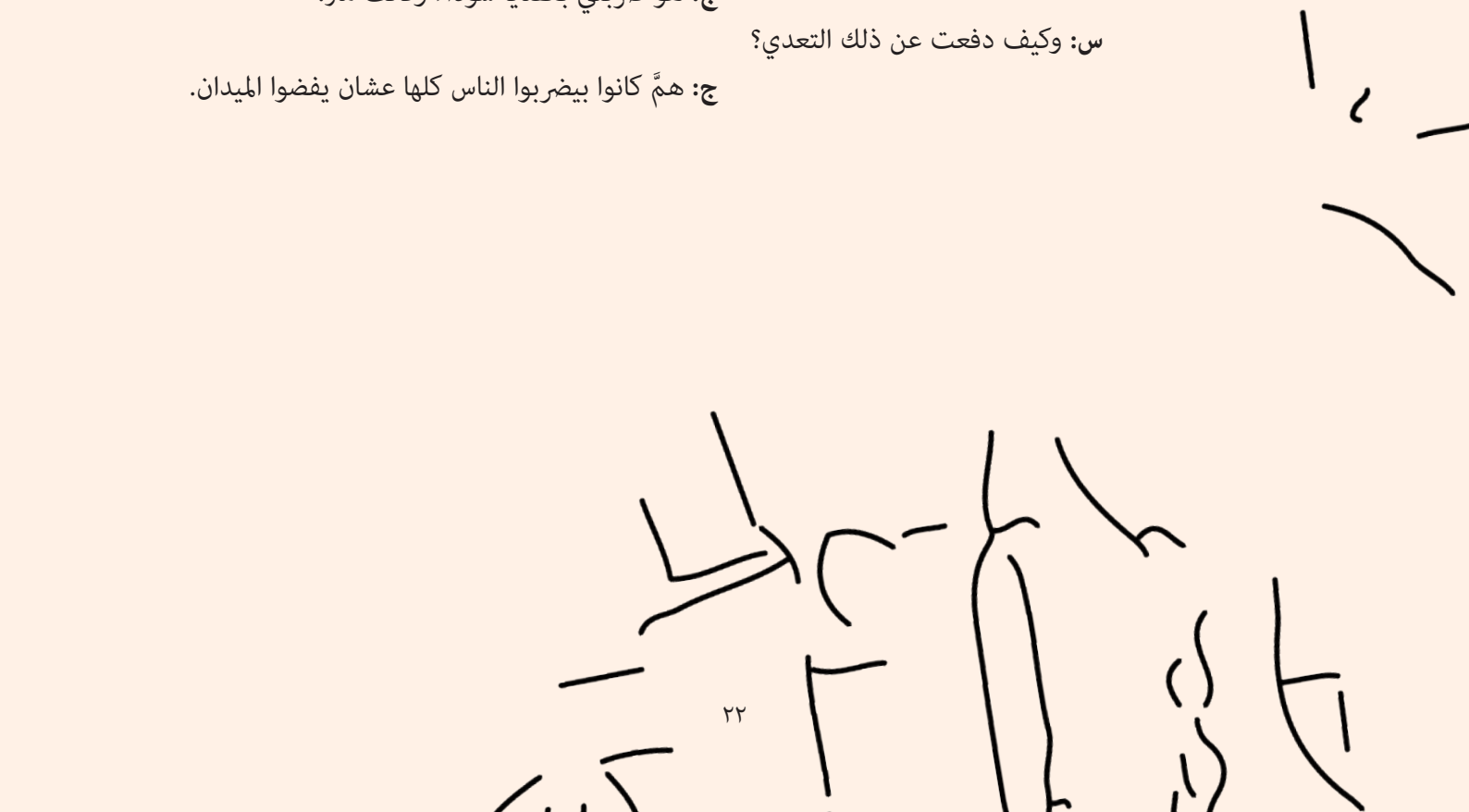

سليمان

لا تـزال ضواحـي الجيـزة مرفـأً يحـط فيـه شـباب الأقاليـم الشـمالية والجنوبيـة عنـد ترحالهـم للعمـل في العاصمـة. يأتـون عـبر وسـطاء يشـغلونهم بمـلاليـم، يقضـون نهارهـم كسريحـة، يمشـطون شـوارع المدينـة لجلـب الـرزق ويقضـون الليـل مـع عمالـة معدمـة في شـقق مكدسـة. بعـض التجـار الكبـار ينظمـون شـبكة لاسـتقطاب شـباب وأطفـال الفلاحـين والصعايـدة ويتحكمـون في مصـادر أرزاقهـم؛ لا يمكـن للغريـب الانتشـار في المدينـة دون غطـاء أو حمايـة، عـلى الأقـل في فـترة الاقتحـام الأولى، فمـن لا يخـشى أهـل هـذه المدينـة!

سـليمان واحـدٌ مـن هـؤلاء، يعيـش في شـارع المحطـة في الجيـزة، منتقـلًا مـن محـل ميـلاده في مركـز بركـة السـبع التابـع لمحافظـة المنوفيـة. يعمـل سـعيد بائعًـا متجـولًا « سريـح» لبعـض الأدوات المنزليـة، يبيـع الأطبـاق والأكـواب البلاسـتيكية المصنوعـة في مصانـع «بـير السـلم» المنتـشرة في شـقوق الطـرق الريفيـة وعـلى أطـراف المـدن.

وصفـت الأوراق سـليمان بأنـه فتـى متوسـط الطـول وقـوي البنيـان، أسـمر اللـون ذو شـعر أسـود ناعـم وطويـل، يرتـدي بنطلونًـا مـن القـماش الرمـادي المخطـط باللـون الأسـود وتيشـيرتًا باذنجانيًـا بنصـف كُـم. لم نفهـم بعـد سر هـوس القـوات الشرطيـة بسرقـة معاطـف الأطفـال والشـباب أثنـاء القبـض عليهـم!

القصـة التـي يرويهـا سـليمان أنـه، أثنـاء مـروره بجـوار وزارة الداخليـة صبـاح يـوم الثلاثـاء في طريقـه لـشراء سـخان كهربـائي مـن محـل بجـوار الـوزارة، وقـف ليشـاهد حركـة المشـاة المتعطلـة ثـم انتظـر حتـى تهـدأ الأمـور. وأثنـاء مـروره ألقـي القبـض عليـه؛ تـولاه ضابـط لإيداعـه الكشـك الخشـبي الـذي جـاء ذكـره في عـدد مـن شـهادات الأطفـال باعتبـاره فرعًـا لوجبـات التعذيـب الجاهـزة في لاظوغـلي! وأثنـاء الطريـق للكشـك الملعـون، كان الضابـط يأمـر عسـاكره بالاعتـداء عـلى سـليمان، «يشـخط» فيهـم ويقـول لهـم: «خـد حقـك» فيقـوم المجنـد بصفـع سـليمان بـكل مـا يسـتطيع اسـتدعاؤه مـن قـوة ليثبـت للضابـط همتـه وشـجاعته! حتـى وصـل سـليمان للكشـك المذكـور، ليتـم «تنفيـض» جيوبـه وركنـه بجـوار باقـي الضحايـا لسـاعات حتـى انتصـاف الليـل. عُـرِض سـليمان عـلى النيابـة فجـر الأربعـاء الموافـق الثالـث والعشريـن مـن نوفمـبر بعـد مـرور أكـثر مـن خمسـة عـشر سـاعة عـلى وجـوده محشـورًا في الكشـك الخشـبي.

س: حدد لنا ما بك من إصابات.

ج: أنا رجلي الشمال وارمة.

س: وما سبب حدوث تلك الإصابة؟

ج: ساعة لما الضابط مسكني كان قاعد بيقول للناس بتاعة الأمن المركزي تعالوا خدوا حقكم فواحد منهم ضربني بالجزمة بتاعته في رجليَّ فورمت.

س: وكم ضربة ضربها لك محدث إصابتك؟

ج: هيَّ ضربة واحدة.

س: وهل استخدم أي أدوات في إحداثها؟

ج: لأ.

س: وأين استقرت تلك الضربة التي سددها؟

ج: هيَّ جت في سمانة رجلي الشمال.

س: وما هو تعليقك لعدم وجود آثار ظاهرة بساقك اليسرى حال مناظرتنا لك؟

ج: هيَّ إصابة بسيطة مش جامدة، وهي عبارة عن تورم في الرجل مش أكثر.

س: هل تتهم أي شخص؟

ج: أنا بتهم عسكري الأمن المركزي اللي ضربني.

س: وما هو اسمه؟

ج: ما أعرفش.

س: وما قصده من التعدي عليك؟

ج: هو كان عاوز يضربني.

س: هل ترغب في عرضك على مصلحة الطب الشرعي؟

ج: لأ.

سيد

غـاب صديقـه نبيـل عـن أهلـه وبيتـه منـذ يومـين، غالبًـا منـذ بدايـة أحـداث محمـد محمـود. عـاش الاثنـان في شـوارع الزاويـة الحمـراء، المنطقـة الهجينـة التـي تكونـت في الثمانينـات، بعـد أول موجـة تفريـغ عمـراني لسـكان «عشـش» الترجـمان وبـولاق في عهـد الرئيـس السـادات، لبنـاء موقـف الترجـمان الموجـود الآن، والـذي يظـل شـاهدًا عـلى فشـل عمليـات نقـل الباعـة الجائلـين مـن الوكالـة ووسـط البلـد. الدولـة قـررت التخلـص مـن بعـض الفقـراء الذيـن يسـكنون وسـط المدينـة والدفـع بهـم إلى منطقـة زراعيـة في طريـق الخـروج مـن القاهـرة تجـاه الدلتـا. كانـت الزاويـة الحمـراء تتبـع حـي شـبرا الخيمـة ثـم اسـتقلت بعـد التوغـل العمـراني الكاسـح لتصبـح حيًّـا عشـوائيًا جديـدًا خُلِـق مـن صُلْـب أحيـاءٍ عشـوائية قديمـة.

ذهـب سـيد إلى التحريـر بعـد أن اسـتغاثت بـه والـدة صديقـه نبيـل المختفـي عـن البيـت. كـرر سـيد، الفتـى متوسـط البنيـة قمحـي البـشرة الـذي لم يكمـل عامـه السـادس عـشر، خطـاوي صديقـه إلى نفـس المـكان البعيـد الـذي ينـأى بمسـافةٍ كافيـة للتفكـير في المخاطـر المتوقعـة مـن زيـارة كهـذه، خاصـة مـع غيـاب نبيـل وعـدم ظهـوره منـذ يومـين.

في حـواليّ التاسـعة مـن صبـاح الثلاثـاء، قُبِـض عـلى سـيد، غـير واضـحٍ المـكان الـذي ألقـي القبـض عليـه منـه. عُـرِض فجـر الأربعـاء دون محـامٍ كالعـادة، إلا أن وكيـل النيابـة أصر عـلى وضـع ملحوظـةٍ في التحقيقـات تفيـد بأنهـم أرسـلوا مندوبًـا لغرفـة المحامـين الموجـودة بـسراي النيابـة في الثانيـة فجـرًا ولم يجـدوا محاميًـا للدفـاع عـن سـيد، ثـم انتهـت الملاحظـة!

لم تُـشِر التحقيقـات إلى وضـع سـيد مـا إذا كان طالبًـا أم عاملًـا، لكنـه سُـئِل مثـل جميـع القـصر عـن اسـم والدتـه للتأكـد مـن هويتـه فيـما بعـد، وأثنـاء إحالـة القضيـة في المرحلـة التالية.

سـأل المحقـق سـيد عـن سـبب تواجـده في المـكان الـذي لم تحـدده التحقيقـات، رد بأنـه ذهـب لهـذه المنطقـة لأنـه علـم بوجـود مصابـين وجرحـى هنـاك متوقعًـا أن يجـد نبيـل بينهـم فيـما لم يكـن موجـودًا، مؤكـدًا أنـه لم يذهـب صـوب وزارة الداخليـة ولم يُلـقَ القبـض عليـه بجوارهـا كـما تشـير الاتهامـات.

س: ما قولك فيما سطره الضابط زكي أحمد مدير إدارة مباحث القاهرة بمحضره المؤرخ في ٢٠١١/١١/٢٢ بأنه أثناء تواجده بخدمة تأمين مقر وزارة الداخلية بالاشتراك مع قوات الأمن المركزي وبالتعاون مع القوات المسلحة قام بضبطك من ضمن مجموعة من المتظاهرين متواجدين بمنطقة وزارة الداخلية وقمت برشق القوات بالحجارة والزجاج والملوتوف محاولين اقتحام مبنى الوزارة حيث تم ضبطك؟

ج: ما حصلش أنا ما رحتش عند الوزارة.

س: ما تعليلك لما سطره سالف الذكر؟

ج: أنا ما أعرفش ولكن هوَّ ممكن يكون افتكر إني عملت كده.

س: وما سبب قيامك بالبحث عن صديقك في ذلك المكان؟

ج: هو علشان كان في مصابين هناك فأنا رحت علشان أشوف صديقي من ضمنهم.

س: هل لديك سوابق؟

ج: لأ.

س: هل تم ضبطك في قضايا مماثلة؟

ج: لأ.

س: هل توجد علاقة أو خلافات بينك وبين سالف الذكر؟

ج: لأ.

س: أنت متهم باستعمال القوة والعنف ضد أشخاص مكلفين بخدمة عامة وهم أفراد القوات المسلحة وذلك لحملهم بغير حق على الامتناع عن عمل من أعمال وظيفتهم ولم تبلغ بذلك مقصدك وكان ذلك بالتعدي عليهم بالضرب باستخدام الحجارة وزجاجات الملوتوف؟

ج: ما حصلش الكلام ده وأنا ما رحتش عند الوزارة.

س: كما أنك متهم بعدم حملك تحقيق شخصية وقد بلغت أكثر من ستة عشر عامًا ومن رعايا جمهورية مصر العربية.

ج: أنا لسه ما طلعتش بطاقة.

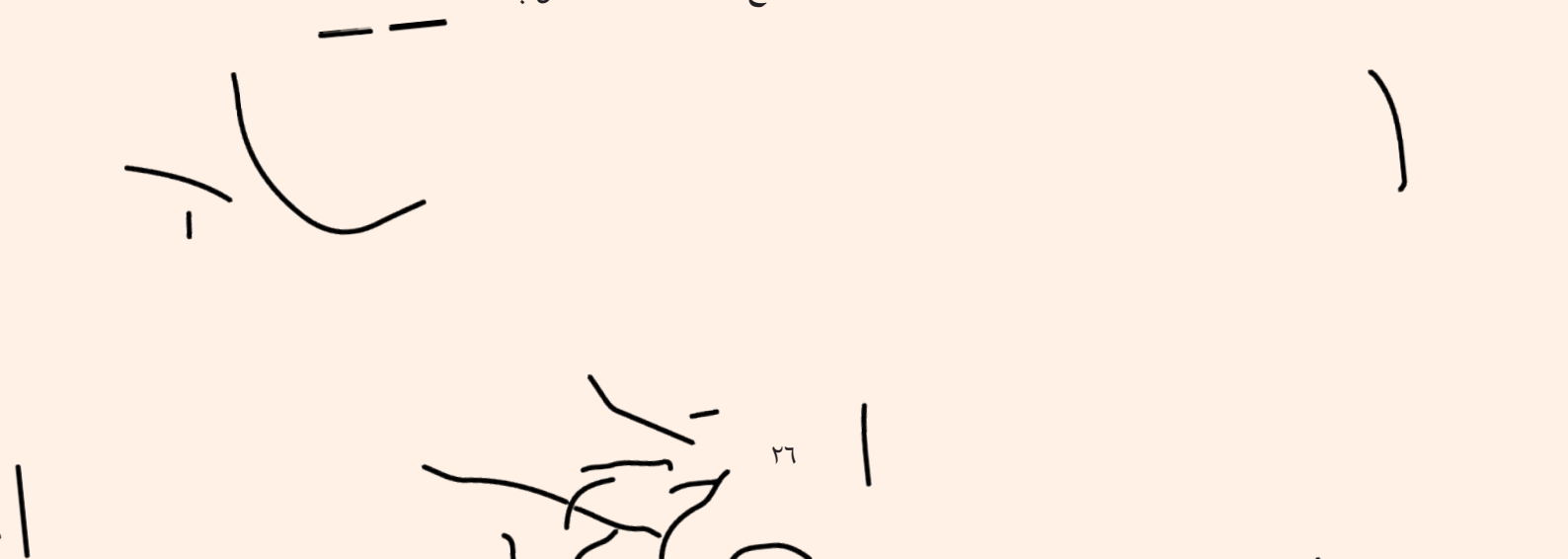

عليوة

تطلع عليوة إلى الشاشات، شاهد ما يقدمه رجال الموتوسيكلات في ميدان التحرير. كانوا أكثر مرونة من سيارات الإسعاف ويحظون بثقة الجميع. لم ينس المتظاهرون يومًا أن سيارات الإسعاف استُخدِمت في أكثر اللحظات دموية في نقل بعض الأسلحة خلال اشتباكات جمعة الغضب.
حين حوصر الجنود بلا ذخيرة أمام المتظاهرين، بعد هرب القيادات لحظة الانسحاب الأمني، صار الجميع عزلًا في مواجهة اللحظة!

ركب عليوة الموتوسيكل بصحبة شخص حافَظَ على عدم ذكر اسمه في التحقيقات؛ خرج الاثنان من مصر القديمة قاصدين التحرير للانضمام إلى فرق الإسعاف الشعبية. حينما وصلا، كانت القوات الشرطية تشنّ احدى الهجمات على المتظاهرين. حاول كلاهما تجنب التدافع إلا أن واحدًا من الجنود قبض على عليوة بينما نجح سائق الموتوسيكل فى الإفلات من نفس المصير. الاثنان تركا الموتوسيكل يواجه مصيره أيضًا.

يعمل عليوة صنايعيًا على ماكينة قطع أخشاب في ورشة نجارة في حي مصر القديمة حيث يعيش، يمتلك جسدًا نحيفًا لم يساعده على مواجهة الاعتداءات ومراسم التعذيب المكررة مع المقبوض عليهم. ذهب عليوة إلى تحقيق النيابة التي ناظرته وسجلت إصابته بالكدمات المتفرقة في جسده. ذهب حافي القدمين يواجه اتهامات بالاعتداء على القوات الشرطية!

قُبِضَ على عليوة فجر الثلاثاء، زُجَّ به إلى الكشك الخشبي ثم نقل إلى أحد معسكرات الأمن المركزي ومن هناك نُقِلَ مع آخرين لحضور تحقيق النيابة في اليوم التالي.

خلال هذا الوقت، تعرض عليوة للتحقيق في أحد معسكرات الأمن المركزي، واللافت أنه أصر على أقواله في تحقيق النيابة أنه حضر لدعم المصابين الذين رآهم بحاجة إلى المساعدة. رغم أن الخوف يبدو شبحًا بديهيًا أمام قاصرٍ عمره ستة عشر عامًا، لم يستصدر بعد بطاقة الشخصية، كان عليوة في سن أصغر من أن يَتَمَكّن منه وقتما خاضت مصر القديمة المعركة الممتدة لساعات حتى المساء في جمعة الغضب لفتح الطريق أمام آلاف المتظاهرين القادمين من المعادي ووطره وحلوان. كان المتظاهرون يحاولون الوصول لميدان التحرير عبر شارع كورنيش النيل الذي يمر عبر منطقته أولًا وكان نجاح مصر القديمة من شأنه أن يُمكّن آلاف القادمين من بعيد من العبور، وهو ما حدث بالفعل.

س: وهل دار بينك وبين مجري القبض عليك ثمة حوار؟

ج: هم شتموني وضربوني، ولكن ما تكلموش معايا.

س: ومن الذي قام بضبطك آنذاك تحديدًا؟

ج: هم الشرطة اللي قبضت عليَّ بس أنا ماعرفش أسماء حد فيهم.

س: وما هو عدد ووصف ملقيي القبض عليك تحديدًا؟

ج: هم عساكر من الشرطة بس أنا معرفش عددهم لأنهم كانوا كتير.

س: وهل وقفت على شخص أيًا منهم؟

ج: لأ، أنا معرفش أساميهم.

س: وما هو الإجراء الذي اتخذوه حيالك؟

ج: هم بعد ما قبضوا عليَّ خدوني على الكشك وبعديها على معسكر الأمن المركزي.

س: هل قاموا بتفتيشك؟

ج: أيوة.

س: وما الذي أسفر عن ذلك التفتيش؟

ج: هم أخدوا مني عدتين موبايل والفلوس ومحفظتي.

س: من القائم بتفتيشك؟

ج: هم اللي مسكوني وأنا معرفهمش.

س: وما هو قصد القائم المتعدي عليك آنذك؟

ج: هما كانوا فاكريني إني أنا واقف مع الناس المتظاهرين وبشارك معاهم في المظاهرات.

س: وكيف استبان لك ذلك القصد؟

ج: علشان هم عملوا كدا مع الناس اللي كانت واقفة في التحرير.

س: هل ترغب في عرضك على مصلحة الطب الشرعي؟

ج: لأ، أنا عايز أمشي مش عايز أتعرض على مصلحة الطب الشرعي.

هلال

كانت الساعة تشير إلى الرابعة والنصف من فجر الثالث والعشرين من نوفمبر حين فتحت النيابة تحقيقها مع هلال. يتداعى خط سكرتير الجلسة حتى تصير مراجعة هذا الخط عقوبة تتنظر من يقدم على ذلك. ومع ذلك، لم يكن استكشاف مواطن الأذى والتنكيل بهذا الطفل أمرًا عصيًّا.. لم تتعد أوراق المحضر الأربع ورقات، وعلى الرغم من التحقيق المختزل الذي لم يضم محضرًا منفصلًا بالإصابات والاعتداءات، كان الأمر جليًّا.

وصل هلال إلى الميدان في إطار عمله كبائع متجول، يبيع الكمامات للمتظاهرين الذين يواجهون قنابل الغاز خلال أيام الاشتباكات. لم يكن هلال وحده المكلَّف بمهمة عمل في الأيام الخطرة بالميدان، فقد أتى عشرات الباعة الجائلين للعمل في هذه الظروف. لا يمكن التكهن إذا ما كان ذلك قراره الشخصي أو قرار من يعمل لحسابه فدفعه وغيره من الباعة الأطفال للعمل في مثل هذه الظروف، المهم أنه وخلال هذه الفترة كان هناك من يقرأ احتياجات الجمهور المشتبك مع الشرطة، وهناك من يشتبك مع اللحظة ويواجه العقبات.

أنهى هلال يوم العمل مما يعني أنه باع جميع الكمامات التي كانت في حوزته. كان ذلك ظهر اليوم الثاني والعشرين من نوفمبر لحظة احتشاد المتظاهرين في مليونية الثلاثاء. وأثناء خروجه من المنطقة المحيطة، دخل شارعًا بالخطأ، تبين له فيما بعد أنه كمين، حيث واجه منفردًا مجموعة من عساكر الأمن المركزي الذين قبضوا عليه بعد ضربه بالعصي السوداء. ضربوه على قدمه ثم جرّوه إلى الكشك الخشبي سيئ السمعة الكائن بجوار وزارة الداخلية، وهناك اعتدى عليه ضابط شرطة باللكم في وجهه، كما تلقى بعض الضربات على جسده وحُجِز بالكشك حتى نُقِلَ إلى النيابة.

اتُّهِمَ هلال بعدم حمل بطاقة شخصية. قال إنه لم يستخرجها بعد. كان شابًا طويلًا قمحيّ البشرة، خفيف الشارب، تبدو عليه أمارات الحظ العاثر الذي لم يمنحه سوى قدرًا بخسًا من التعليم؛ وجدنا توقيعًا غير واضح المعالم على أقواله. جاء هلال قادمًا من شوارع حي المرج، المنطقة الريفية المطلة على محافظة القليوبية والتي اشتهرت بزراعة النخيل، وبنيت فيها فيلات واستراحات للميسورين مثل فيلا زينب الوكيل زوجة النحاس باشا، ثم تحولت أحد قصورها إلى منفى دائم لمحمد نجيب، أول رئيس عسكري في جمهورية الضباط. المنطقة التي ظلت تتلقّف، منذ الثمانينات، أفواج من فقراء المدينة، في محاولة مستمرة من أولي الأمر لدفعهم نحو الأطراف.

س: وما قولك فيما هو منسوب إليك من أنك متهم بعدم حيازتك تحقيق شخصية حال كونك من رعايا جمهورية مصر العربية؟

ج: أنا ما طلعتش بطاقة.

س: ما الذي حدث إذًا وما هي ظروف ضبطك وإحضارك؟

ج: اللي حصل إن أنا كنت ببيع كمامات للناس في ميدان التحرير، رحت مكان تاني علشان أشتغل فيه وبعد كده لما خلصت مشيت ودخلت شارع غلط غير اللي بمشي فيه كل مرة، ولقيت بعد كده عساكر ماسكين عصيان ولابسين خوذة وضربوني على رجليَّ من غير أي إصابات وبعد كده خدوني على كشك وبعد كده لقيت ضابط جه ضربني بالبوكس وضربني وركبني عربية الترحيلات وبعد كده جيت على النيابة.

س: متى وأين حدث ذلك تحديدًا؟

ج: الكلام ده حصل ٢٠١١/١١/٢٢ حوالي الساعة ١٢ ظهرًا في شارع متفرع من شارع التحرير وشارع محمد محمود.

س: ما مناسبة تواجدك في الزمان والمكان سالفي الذكر؟

ج: أنا شغال هناك بائع متجول كمامات.

س: ومن كان برفقتك آنذاك؟

ج: أنا كنت لوحدي.

رجب

تتفرد هذه القصة وتأخذ منحى مختلف؛ يقدِّم الطفل فيها أوصافًا للأشياء، لا وجود للأسماء، فقط وقائع غير مرتبطة بالحدث الذي يجري، وربما وقعت الأحداث، للمفارقة، في الإطار الزمني لاشتباكات صباح مليونية الثلاثاء.

يعيش رجب في حي الشرابية الشعبي بشرق القاهرة، يصف نفسه بأنه عامل مقاولات. يذهب رجب صباحًا إلى كوبري قصر النيل من ناحية الأوبرا لمقابلة شقيقه ليحصل منه على شيء هام، وأثناء عودته في الطريق المتجه لميدان التحرير، يرى مجموعة تجري على الكوبري وخلفها مجموعة أخرى تتشح بالسواد، كما وصف بينما لا يعرف هويتهم، ثم يضطر إلى الجري مع الفارين خوفًا من المشهد القادم نحوه، يجري حتى يُلقَى القبض عليه.

يسأله المحقق عما يفعله شقيقه في هذا الوقت وهذا المكان، ويجيب بأن أخاه يعمل كعسكري في القوات البحرية التابعة للجيش وأن هذا هو مكان خدمته، وأنه هو من اتصل به واستدعاه إلى المكان.

تَعرَّض رجب للاعتداء من قبل المجموعة ذات الرداء الأسود، «قَلَّبَت جيوبه» وحصلت على أمواله التي قدّرها في المحضر بـ ألف جنيه. سأله المحقق: «من أين لك بالمبلغ؟» فقال: «أعطاه لي والدي». كرر المحقق السؤال ورد الفتى بثقة: «أنا متعود أشيل فلوس كتير»!

تَعرَّض رجب للإيذاء في يديه على وجه الخصوص، غالبًا أثناء حمايته لأغراضه: النقود والتليفون باهظ الثمن الذي أثبت قيمته في محضر التحقيق، وكذلك أصيب بكتفه وظهره وطلب عرضه على الطب الشرعي. استطاع رجب في التحقيق الإضافي التحدث عن مرتكبي الاعتداءات بحقه عندما سأله المحقق عما إذا كانوا أفرادًا من الشرطة ورد بالإيجاب.

كان رجب متوسط البنية، قمحيّ اللون ذا شعرٍ أسود، حليق الذقن، يرتدي تيشيرتًا رماديًا في أحمر وبنطلون جينز كحلي اللون، وكوتشي أبيض.

حرر هذا المحضر ضد هذا الطفل عميدُ شرطةٍ يعمل بإدارة مباحث الآداب في القاهرة!

س: كيف تم ضبطك؟

ج: وأنا راجع ناحية ميدان التحرير لقيت ناس بتجري فجريت معاهم.

س: وما سبب قيامهم بالعدو؟

ج: أنا ما أعرفش.

س: ما سبب قيامك بالعدو برفقتهم؟

ج: أنا قلت أكيد في حاجة جاية وراهم.

س: من الذي قام بضبطك؟

ج: ناس لابسة أسود ما أعرفش شغالة إيه.

س: وما سبب قيامهم بضبطك؟

ج: ما أعرفش.

س: هل قام أيًا منهم بالتعدي عليك؟

ج: أيوة، هُمَّ ضربوني.

س: هل تتهمهم بالتعدي عليك؟

ج: أيوة.

س: ذكرت بأقوالك قيام مجموعة من الأشخاص بالاستيلاء على بعض المنقولات الخاصة بك؛ صف لنا كيفية حدوث تلك الواقعة؟

ج: همَّ لمَّا مسكوني فتشوني وأخدوا مني الحاجات اللي كانت معايا.

س: حدد لنا تلك المنقولات؟

ج: مبلغ ١٠٠٠ جنيه وتليفوني المحمول.

س: من أين تحصلت على المبلغ المشار إليه؟

ج: من أبويا.

س: وما مناسبة قيامك بالاحتفاظ به؟

ج: أنا على طول معايا فلوس كتير.

س: صف لنا الهاتف المحمول الذي تم الاستيلاء عليه.

ج: تليفوني نوكيا N٩٥ أسود اللون بخطين ورقمهم ********** و**********.

س: وكم يقدر ثمنه؟

ج: هو كان بـ ٢٥٠٠ جنيه.

اليوم الرابع في التحقيقات

٢٤ نوفمبر

عـرف المتظاهـرون مـا يسـمي ببيانـات «يـوم الخميـس»؛ تلـك التـي كان يصدرهـا المجلـس العسـكري قبـل الدعـوة للمليونيـات، وكان لهـذه البيانـات طابعًـا لا يتغـير وهـو الاسـتجابة الشـكلية لبعـض المطالب لتسـكين حـدة الانضمام والحشـد الجماهـيري وتقليل الزخـم حـول المطالـب، مـما يسـبب انشـقاقات بـين الكتلـة الداعيـة للمليونيـة؛ وهنـا تـدب الفرقـة!. لكـن المـزاج الجماهـيري في تلـك اللحظـة كان يقظًـا ولا يـزل ينعـم بحريـة الحركـة السياسـية في الشـارع. انتـشرت ثقافـة الاحتجـاج في المجتمـع كالنـار في الهشـيم وتجـاوزت ميـدان التحريـر إلى مواقـع العمـل والأحيـاء الشـعبية وميادين الأقاليـم. غـير أن خيبـات الساسـة وفِطْـرة الشـباب الثـوري الـذي لم يكـن معظمـه منخرطًـا في العمـل السـياسي مـن قبـل لضيـق أفـق سـنوات مـا قبـل الثـورة، وأخـيرًا وكثـيرًا انتهازيـة جماعـات الإسـلام السـياسي ومـن بينهـم مـن اسـتطاع الوصـول للحكـم مثـل الإخـوان، كلهـا أسـباب جعلـت عواقـب هـذه المعركـة مخيفـة وكارثيـة رغـم مـا تثـيره مـن شـبق للحنـين الثـوري وللحظـات المقاومـة لـكل المسـتحيلات. لم يسـتطع ميـزان القـوة المختـل أن يعكّـر نقـاء المعركـة؛ كان منطقيًـا أن تبحـث الجمـوع عـن صيغـة واضحـة لمفهـوم الغـدر والنقـاء، أوجـزت بسلاسـة في عبـارة بسـيطة ومحببـة: «كانـوا ديابـة وكنـا أسـود».

الرابـع والعـشرون مـن نوفمـبر، كان يـوم الساسـة بامتيـاز؛ لا تـزل آثـار المعركـة هنـا وهنـاك، فيـما تخـثرت خرائـط الـدم لتتلـون بالأحمـر الداكـن. يتجشـأ المجلـس العسـكري برسـالة اعتـذار جديـدة، تلـك المعتـادة بعـد انقضـاء أي مذبحـة، ويسـتطيع أخـيرًا سـحب قـوات الداخليـة لعمـق مـكان الـوزارة، بعـد أن ظلـت تفـترس المتظاهريـن بحجـة الدفـاع عـن المبنـى الـذي يبعـد عـن الاشـتباكات بعـشرات الأمتـار. كانـوا يحمـون الـوزارة الكائنـة بشـارع الشـيخ ريحـان عـن طريـق القتـل في شـارع محمـد محمـود.

بعـد مـرور سـنوات، نُقِـل مقـر الـوزارة إلى مسـتعمرة صحراويـة خاصـة تبعـد عـن المسـاكن الأهليـة ووسـط البلـد القديمـة. كان من الممكـن أن يحـدث ذلـك بعـد الثـورة مبـاشرة، وكان ليسـعد بهـذه الخطـوة كثـيرون مـن سـكان المنطقـة التـي دُمِّـرَت مـرارًا وأُتْلِفَـتْ ممتلكاتهـا العامـة والخاصـة، لكنهـا معركـة السـطوة؛ لم يكـن المبنـى والمكاتـب ومقومـات الدولـة العميقـة وحسـب السـبب وراء قتـل العـشرات بذريعـة الحمايـة، كانـوا يحمـون مقـرات التعذيـب وأدوات القمـع والسـيطرة الشـاملة عـلى حيـاة العبـاد.

في يـوم الساسـة، يعـود كـمال الجنـزوري، رجـل مبـارك، إلى رئاسـة الـوزراء. هـدأت الاشـتباكات ووُضِعَـت الأسـوار والحواجـز في قلـب محمـد محمـود، كأنهـم يَفُضُّـون خناقـة بـين جبهتـين متكافئتـين!. تحـدث نائـب رئيـس الشرطـة العسـكرية عـن الوصـول لتهدئـة مـع شـباب الثـورة المخلصـين، كاد أن يـرش المـاء أمـام المحـل وعفـا اللـه عـما سـلف.

بعـد حـوارات التهدئـة مبـاشرة، بـدأت أسـطوانة الوقيعـة بـين الجيـش والشرطـة والشـعب، وأن هنـاك عنـاصر مندسـة أشـعلت حرائـق محمـد محمـود، وليـس القتـل المنهـج والخطـط الانتقاميـة لتصفيـة عيـون النـاس وأرواحهـم.

في لحظـات التهدئـة المسـتعرة هـذه، لحـق شـهيدان مصابـان في مستشـفى القـصر العينـي بمـن سـبقوهم في قائمـة قتـلى أحـداث شـارع محمـد محمـود، ليصـل العـدد إلى ثمانيـة وثلاثـين شـهيدًا في هـذا الوقـت، ومـا يفـوق الثلاثـة آلاف مصـاب.

اسـتمرت تحقيقـات النيابـة مـع المقبـوض عليهـم، ومـن بينهـم عـدد كبـير مـن القـصر المقبـوض عليهـم في الأيـام السـابقة، حفاظًـا عـلى ديمومـة العمـل! كان الأمـر بمثابـة إشـعال قَبَـس وإلقـاء المـاء عليـه بغتـة! فـلا يـزل هنـاك هـؤلاء الأطفـال عالقـون في معاناتهم دون إدراك للهدنـة التـي وقعـت.. يولـع القانـون بالحفـاظ عـلى مجـراه بـصرف النظـر عـن مجـرى حيـاة البـشر مـن حولـه.

كامل

كان كامـل الطفـل الوحيـد الـذي ذهـب إلى تحقيـق النيابـة ولا تـزل محفظتـه في جيبـه، لم يتـم «تقليبـه ونفضـه»، لم يذكـر أي اعتـداءات تعـرض لهـا، يـا للعجـب!

كامـل بائـع متجـول، نـزل إلى ميـدان التحريـر في الثالـث والعشريـن مـن نوفمـبر العاصـف ليقابـل بعـض أصدقائـه مـن الباعـة السرِّيحـة الذيـن يعملـون في الميـدان. ذلـك حتـى أوقفـه أحدهـم وأدخلـه مسـجدًا خلـف مجمـع التحريـر حسـب قولـه. لا يوجـد سـوى جامـع عمـر مكـرم الـذي يقـع بجـوار المُجمّـع وليـس خلفـه، وكان الجامـع يعمـل كمستشـفى ميـداني ومخـزن للأدويـة واحتياجـات الجرحـى في هـذا الوقـت، لا يتبقـى سـوى الزاويـة الصغيـرة الملحقـة بمجمـع التحريـر، وبسـؤاله عـن الشـخص الـذي أدخلـه الجامـع، قـال إنـه رجـلًا «شـيخ وبدقـن»، ظـل يسـبه «يـا بلطجـي... يـا حرامـي».

أدرك كامل أنه محتجز لحين وصول الشرطة، لكنه فوجئ بضابط جيش جاء ليستلمه من الشيخ ويأتِ به إلى مقر النيابة.

بتفتيـش الطفـل في النيابـة، كان يملـك حافظـة جلديـة بنيـة تحتـوي عـلى بطاقـة الرقـم القومـي، وورقـة ماليـة فئـة العـشرة جنيهـات. أفلـت الفتـى مـن «التهليـب» الشرطـي!. أشـارت بطاقـة الرقـم القومـي إلى مـكان ولادة كامـل في قريـة صفـط الخـمار بالمنيـا، وهـي قريـة متطـورة تتبـع مركـز المنيـا، تضـم مدارسًـا عديـدة للبنـات والبنـين. عـرف تلـك القريـة باهتمامهـا بتعليـم الفتيـات، وسـيطرتها عـلى نتيجـة انتخابـات مركـز المنيـا فقـد ظلـت تلعـب هـذا الـدور السـياسي لسـنوات محتكـرة عضويـة مجلـس الشـعب عـن الفئـات والعـمال! تتحكـم في تلـك القريـة بعـض العائـلات منـذ عقـود؛ وربمـا منحـت جـزءًا مـن حظهـا لطفلهـا المقبـوض عليـه، فلـم يتعـرض لمـا تعـرض لـه العـشرات.

كان محـضر تحقيـق كامـل مـن المحـاضر القليلـة التـي تمـت مواجهتـه فيهـا بأسـماء بعـض الأشـخاص، لم يكونـوا مـن الأطفـال المقبـوض عليهـم، ولم يُسـتَدَل في التحقيـق عـن هويـة باقـي الأشـخاص.

كان كامـل فتـى قصـير القامـة، نحيفًـا، أسـود الشـعر، قمحـيّ البـشرة، يرتـدي قميصًـا كاروهـات وبنطلونًـا مـن الجينـز، وحـذاءًا قماشـيًا أسـود اللـون.

س: متى وأين حدث ذلك؟

ج: الكلام ده حصل النهارده الساعة ١٠ الصبح بميدان التحرير.

س: وما سبب ومناسبة تواجدك بالمكان والزمان سالف الذكر؟

ج: أنا كنت رايح لبائعين أصحابي في وسط البلد.

س: من كان يرافقك آنذاك؟

ج: أنا كنت لوحدي.

س: وماهي علاقتك بكل من فلان وفلان وفلان؟

ج: أنا ما أعرفهمش.

س: وما الذي حدث تحديدًا حال تواجدك بميدان التحرير؟

ج: لقيت واحد مسكني ودخلني الجامع اللي في التحرير ورا المجمع؟

س: هل توقفت على معرفة هوية أو اسم ذلك الشخص؟

ج: لأ، بس هو كان شيخ بدقن؟

س: ما هو سبب قيام سالف الذكر باقتيادك للمسجد آنذاك؟

ج: ما أعرفش بس هو كان عمال يقولي يا بلطجي يا حرامي؟

س: ما هو سبب قيام سالف الذكر بالتعدي عليك بتلك الألفاظ؟

ج: ما أعرفش بس هو يمكن يكون فاكرني كده.

س: وما الذي حدث حال تواجدك بالمسجد؟

ج: لقيت الجيش جه وقبض عليَّ وجابني على النيابة.

محمد

تصدرت هيئة محمد المشهد الوصفي المعلق دائمًا في سقف ورقة التحقيق، لم يُذكر ما إذا كان طالبًا أم عامًلا، لم يرد عنوانه أو محل سكنه. افتقر المحضر إلى المعلومات الأساسية واكتفى بوصف الفتى الذي نزل اشتباكات محمد محمود وحده ليرى ما يحدث في الشارع، ذلك الحدث الذي صار ملء السمع والبصر. خرج محمد بكامل هندامه، لم يكن الفتى أقل من اللحظة.

تصف أوراق التحقيق محمد بأنه فتى في منتصف العقد الثاني من عمره، لم يستخرج بطاقة بعد، أسمر البشرة ذا شعر أسود، يرتدي بنطال قصير «برامودا» مشجر في رمادي، وسترة سوداء «سويتر» بدون أكمام، تحته تيشيرتًا أزرقًا، وينتعل في قدميه صندلًا بنيًا.
لم تكتمل صورة الفتى المهندم بعد، رصدت معاينة النيابة إصابة محمد بكدمة في العين اليسرى وسحجات في القدم اليمنى تكشف تعرضه للإيذاء على مدار ساعات.

في عصر الثلاثاء الثالث والعشرين من نوفمبر، حاول محمد دخول شارع محمد محمود إلا أن محاولته قد باءت بالفشل. كانت الشرطة تنفذ إحدى هجماتها وتطارد المتظاهرين حتى حدود الميدان. دخل محمد شارع باب اللوق، بيد أن ثمة كمين كان بانتظاره في أحد الشوارع. وجد الفتى نفسه في شارع صغير متفرع من باب اللوق محاصرًا بين قوات من الشرطة والأمن المركزي من ناصية وقوات الجيش المتمركزة من الناصية الأخرى. حاول استجداء عطف القوات مرددًا بأنه لم يلقِ الطوب على الوزارة فيما قبض عليه أحد العساكر وساقه إلى شارع محمد محمود. في طريقهما، سِيقَ الفتى كالغنيمة، تعتدي عليه العساكر بمختلف أنواع العصيّ من الجلد والخشب حتى قرر السقوط على الارض لحماية جسده. حينها، أوقف الجندي اعتداء زملائه على الصبي البائس وساقه مرة أخرى إلى شخص يرتدي الزي المدني. حاول محمد التحدث إلى ذلك الشخص إلا أن رده كان صفعة على وجه الفتى نتج عنها تلك الكدمة التي تحيط إحدى عينيه. زُجَّ بمحمد إلى داخل الكشك الخشبي المشئوم بجوار وزارة الداخلية حتى تم نقله وآخرون إلى أحد معسكرات الأمن المركزي، ومنه إلى سجن طره، وصولًا إلى النيابة بعد رحلة تعذيب دامت لأربع وعشرين ساعة.

كان واضحًا أن أماكن الاحتجاز لم تحتمل كل عدد المقبوض عليهم؛ ذهبوا بالأطفال إلى سجن طره الذي لا يستقبل إلا البالغين ممن تجاوزا الثمانية عشرعامًا. كان الأمر مشابهًا مع النيابة العامة المختصة بالوقوف على التحقيقات، فلم تكن لديها من قوة العمل ما يكفي لتغطية كل هذه التحقيقات، مما استوجب انتداب وكلاء نيابة من نيابات مختلفة لاستكمال التحقيقات. وهو ما حدث مع محمد، إذ قام بالتحقيق معه أحد وكلاء النيابة المنتدبين من نيابة الوايلي الجزئية.

س: ومن محدث إصابتك تحديدًا؟

ج: عساكر أمن مركزي ما أعرفهمش.

س: وما الأدوات التي تعدى بها سالفي الذكر عليك؟

ج: هم ضربوني بعصيان جلد كانت معاهم، وفي واحد لابس ملكي كان معاهم ضربني على وشي بالقلم.

س: وفي أي موضع من جسدك استقرت تلك الضربات؟

ج: العصيان الجلد كانت على جسمي كله واللي ضربني بالقلم كان على وشي من ناحيته الشمال.

س: كم عدد الضربات التي تلقاها جسدك؟

ج: عساكر الأمن المركزي ضربوني كتير بالعصيان على جسمي كله لكن اللي ضربني بالقلم على وشي من ناحية الشمال مرة واحدة.

س: وهل حاولت درء التعدي الواقع عليك؟

ج: لأ.

س: ولماذا؟

ج: لأني معرفتش أعمل حاجة مع العدد اللي كان بيضربني.

س: هل حاولت الاستغاثة بأحد؟

ج: المكان اللي أخدوني فيه كان كله عساكر وما كانش في حد ينفع يمنعهم عني.

س: هل ترغب في عرضك على الطب الشرعي؟

ج: لأ.

س: هل أجبرك أحد على هذه الأقوال؟

ج: لأ.

س: هل لديك أقوال أخرى؟

ج: لأ.

سعد

أقر سعد بوجوده في شارع محمد محمود وقت الأحداث، قال إنه كان يهتف مع آخرين «سلمية... سلمية» إلى أن رماهم الجنود بالخرطوش، متبعينه بقنابل الغاز، وحتى قُبِضَ عليه. حدث ذلك قرابة السابعة صباحًا من اليوم الثالث والعشرين من نوفمبر.

انضم سعد إلى متظاهرين لا يعرفهم. سقط من بينهم مترنحًا يكاد يفقد وعيه. سُحِل مجرورًا على الأرض حتى وصل إلى صندوق الشرور الخشبي، «باندورا الداخلية». حُشِرَ الفتى بجانب رفاقه في هذا المكان ككتلة من اللحم تنتظر الإعداد، نُقِلَ بعدها لاستيفاء الفيش والتشبيه ثم إلى النيابة حيث بدأ التحقيق معه في تمام الثالثة من فجر اليوم التالي.

تقع منطقة الكيلو ٤,٥ التي يعيش فيها سعد على مسافة قاصية من التحرير، تتطلب من ثلاث إلى أربع وسائل مواصلات متنوعة، إذ تقع المنطقة على نهاية طريق مدينة نصر وبداية طريق القاهرة السويس. تأسست تلك المنطقة بدون خطة عمرانية، شبَّت الأعشاش والبيوت ثم البنايات ذات الطوابق المتعددة دون أوراق ثبوتية. ظلت الدولة، حتى وقت قريب، ترفض الاعتراف بالمنطقة وترفض توصيل الخدمات والمرافق الأساسية إليها. عاش سكان تلك البقعة متعطشون بحثًا عن المياه، تنحصر أمانيّهم في مستشفى ومدرسة لا تبعد عشرات الكيلو مترات عن البيت. آثرت الدولة الحفاظ على قرارها بعدم الاعتراف بتلك البقعة والآلاف الذين يقطنوها، وظلت منبوذة حتى أدركت الدولة أهمية المنطقة في إتمام محور الوفاء والأمل المتجه إلى السويس، وعليه، أُزيلت عشرات المنازل وتم نقلها إلى مدن جديدة مقابل إدخال بعض الخدمات للمنازل القائمة، في مقايضة تليق بشركة استثمار ناجحة، ليطلق عليها فيما بعد: مدينة الأمل!.

ربما يعيش سعد في مدينة الأمل الجديدة أو نُقِل مع أهله إلى مساكن «أهالينا» بحي دار السلام، لكنه كان يعمل في ورشة صناعة ألوميتال في منطقته، ولد في الحي المنبوذ، ولم تنجِّه خطواته من شر التجربة.

كان سعد من القلائل الذين وجدوا محاميًا يدخل معهم تحقيق النيابة. شاهد الحضور فتى في السادسة عشر من عمره، متوسط القامة، قمحيّ البشرة وذا شعر أسود، يرتدي بنطالًا من الجينز الأزرق وقميصًا أسودًا وينتعل شبشبًا بقدميه. كان مصابًا في الكتف والظهر، عاينته النيابة وسجلت إصابته في تحقيق مقتضب.

س: ما ملابسات حدوث إصابتك؟

ج: اللي حصل إني كنت في ميدان التحرير وحصلت لي إصابات من قبل الشرطة ولا أعرف أسمائهم وأُصِبت بظهري وكتفي.

س: ما هو اسم المشكو بحقهم؟

ج: هي الشرطة لكن معرفش أساميهم.

س: ما المسافة التي كانت بينك وبين المتهم؟

ج: هي مسافة بسيطة ما أقدرش أقول كام.

س: هل تتهم أحد بإحداث إصابتك؟

ج: لأ.

س: هل ترغب في تحويلك للطب الشرعي؟

ج: لأ.

س: هل لديك أقوال أخرى؟

ج: لأ.

تمت أقواله

نماذج من بعض الاتهامات الموجهة للأطفال القصر في هذه القضية

س: ما هو قولك فيما هو منسوب إليك من أنك متهم بعدم حملك تحقيق شخصية وقد بلغت أكثر من ستة عشر عامًا ومن رعايا جمهورية مصر العربية؟

س: ما قولك فيما قرره النقيب كريم عز الدين، بمحضر جمع الاستدلالات المؤرخ بتاريخ ٢٠١١/١١/٢١ من ضبطك وآخرين، بالتنسيق مع قوات الشرطة العسكرية وقوات الجيش، وقيامكم برشق وزارة الداخلية بالحجارة والزجاجات الفارغة والمولوتوف وغلق الطرق المؤدية للوزارة مما أدى إلى إصابة بعض المجندين من القوات الخاصة بتأمين الوزارة وتعطيل حركة المرور للسيارات والمشاة وإتلاف بعض المنشآت والمحلات التجارية والسيارات، والمنطقة التي تعذر حصرها الآن نظرًا لوجود المتظاهرين، ومنع أصحابها للوصول إليها مما اضطر قوات الأمن المركزي إلى إلقاء بعض الغازات المسيلة للدموع التي تستخدم في مثل تلك الوقائع لتفريقكم ومنعكم من اقتحام مبنى الوزارة؟

س: كما أنك متهم باستخدام القوة والعنف أثناء التجمهر، موضوع الاتهام الأول، مع الموظفين العموميين من ضباط وأفراد الشرطة وذلك لحملهم بغير حق على الامتناع عن عمل من أعمال وظيفتهم والتعدي بالضرب باستخدام أسلحة بيضاء أحدثت إصابة الضباط وجنود قوات الشرطة على النحو المبين بالأوراق!

س: كما أنك متهم بإحداث إصابة لكل من ضباط الشرطة وأفراد قوات الأمن المركزي حال كونك ضمن عصبة أو تجمهر مؤلف من خمسة أشخاص فأكثر توافقوا على التعدي فيما بينهم على النحو المبين بالأوراق!

س: ما قولك فيما أضافه سالف الذكر بالتحقيقات من أن أعداد المتظاهرين تفوق الثلاثين ألف متظاهر بميدان التحرير وكان لهم مطالب سياسية في الميدان ونُقِلَت نزاعاتهم للشوارع الجانبية وشرعوا في اقتحام وزارة الداخلية ظنًا منهم أنها المسئولة عن القرارت السياسية الصادرة من الجهات القائمة على إدارة البلاد، وأن العناصر المضبوطة موجودة بوزارة الداخلية؟

س: وما قولك فيما شهد به المقدم محمد أحمد سيد خلق قائد السرية الخاصة بالشرطة العسكرية بتحقيقات النيابة العامة من أنه حال تواجده بقوة تأمين مبنى وزارة الداخلية وذلك بتاريخ ٢٠١١/١١/٢٤ الساعة ٦ مساءً تقدم فلان وفلان وأبلغوه بقيامهم بضبطك وكل من فلان وفلان وفلان وذلك لقيامهم بقذف الحجارة على قوات الأمن والمتظاهرين قاصدين بذلك إثارة الفتنة وإثارة الرعب وإحداث الوقيعة بين الشرطة والمتظاهرين مما أدى إلى حدوث اشتباكات بين قوات الشرطة والمتظاهرين وذلك بشارع محمد محمود؟

س: ما قولك فيما أضافه سالف الذكر بالتحقيقات من أنك متهم وباقي المتهمين بالنداء بمطالب سياسية بالميدان والتعدي على وزارة الداخلية على اعتبار أنها هي المسئولة عن تلك القرارات السياسية والعناصر التي ضبطت بداخل الوزارة؟

خريطة للمنطقة المحيطة بشارع محمد محمود

مدونة قانونية

www.legalblogegypt.org